جعلتُ صدورَهم أوطاناً ومساكنَ لك

موجز في تفسير سورة «الناس»

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة الرابعة عشرة بعد المائة، الأخيرة في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، آياتها ستّ، وهي مدنيّة على ما ورد في سبب نزولها، وقيل إنّها مكّية. جاء في الحديث النبويّ الشريف أنّ من قرأها وسورة الفلق: «فكأنّما قرأ جميع الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء».**

*** سُمّيت بـ«الناس» لورود هذا التعبير في خمس من آياتها.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

محتوى السورة

تأمر السورة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم باعتباره القدوة والأسوة أن يستعيذ بالله من شرّ الموسوسين. ومحتواها شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهما يدور حول الاستعاذة بالله من الشرور والآفات، مع فارق أنّ سورة الفلق تتعرّض لأنواع الشرور، وهذه السورة تركّز على شرّ «الوسواس الخنّاس».

سبب النزول

روي أنّ رسول الله ﷺ اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقعد جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، فعوّذه جبرائيل بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وميكائيل بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

فضيلة السورة

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «**أنزلتْ عليّ آيات لم ينزل مثلهنّ: المعوّذتان**». [المُعوّذتان: بضمّ الميم، وفتح العين، وكسر الواو المشدّدة، سورتا الفلَق والناس، سمّيتا بذلك لأنّ جبرئيل عوّذ بهما رسول الله صلّى الله عليه وآله حين وعك]

* وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال لأحد أصحابه ويدعى عقبة بن عامر: «**ألا أعلّمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن؟** قلت: بلى يا رسول الله. فعلّمني المعوّذتين. ثم قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي: **إقرأهما كلّما قمتَ ونِمتَ**».

* عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «**من أوتر بالمعوّذتين، و(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قيل له: يا عبدَ الله أبشر فقد قبل الله وِترك**».

في مجمع البيان وفي حديث أُبيّ «**ومن قرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فكأنّما قرأ جميع الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء**».

الوسواس الخناس

قال الطبرسي في (مجمع البيان): «الوسواس: حديث النفس بما هو كالصوت الخفيّ، وأصله الصوت الخفيّ.. والخنوس: الاختفاء بعد الظهور».

وقال الطباطبائي في (الميزان): «الخنّاس صيغة مبالغة من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور. قيل: سمّي الشيطان خنّاساً لأنّه يوسوس للإنسان، فإذا ذكر الله تعالى رجع وتأخّر، ثمّ إذا غفل عاد إلى وسوسته».

في المرويات

* النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إنّ الشيطان واضعٌ خَطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس**».

الإمام الصادق عليه السلام: «ما من مؤمن إلّا ولقلبه أذنان في جوفه، أذنٌ ينفث فيها الوسواس الخنّاس، وأُذن ينفث فيها الملَك، فيؤيّد الله المؤمن بالملَك، فذلك قوله: ﴿..وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ..﴾».

* عنه عليه السلام: «ما من قلب إلّا وله أذنان، على أحدهما ملَك مُرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتّر، هذا يأمره وهذا يزجره، وكذلك من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي كما يحمل الشيطان من الجنّ».

* وعنه عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى جعل لآدم ثلاث خصال في ذرّيته:

١- جعل لهم أنّ مَن هَمّ منهم بحسنة ولم يعملْها كتب له حسنة، ومَن همّ بحسنة فعملها كتب له بها عشر حسنات.

٢- ومن همّ بسيّئة ولم يعملها لا يكتب عليه، ومن عملها كتبت عليه سيئة واحدة.

٣- وجعل لهم التوبة حتّى يبلغ الروح حنجرة الرجل.

فقال إبليس: يا ربّ جعلتَ لآدم ثلاث خصال فاجعل لي مثل ما جعلت له! فقال: قد جعلتُ لك لا يولد له مولود إلّا وُلد لك مثله، وجعلت لك أن تجري منهم مجرى الدم في العروق، وجعلت لك أن جعلتُ صدورهم أوطاناً ومساكن لك. فقال إبليس: يا ربّ حسبي».

* وقال عليه السلام: «لمّا نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ..﴾، صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثوير، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيّدنا لِمَ دعوتنا؟ قال: نزلتْ هذه الآية فمَن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لستَ لها. فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال لستَ لها. فقال الوسواس الخنّاس: أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعِدُهم وأُمَنّيهم حتّى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتُهم الاستغفار، فقال: أنت لها. فوكّله بها إلى يوم القيامة».

القرآن مصون من التحريف

أوضح دليل على أنّ القرآن الذي هو بأيدينا اليوم هو القرآن الذي نزل على النبيّ الكريم ولم يطرأ عليه أي تحريف أو تغيير، أنّ الأوصاف التي ذكرها القرآن نفسه موجودة اليوم كما كانت في السابق.

يقول القرآن: إنّني نور وهداية، وأرشد الناس إلى الحقّ والحقيقة.

ويقول: إنّني أبيّن ما يحتاج إليه الإنسان ويتّفق مع فطرته السليمة.

ويقول: إنّني كلام الله تعالى، ولو لم تصدّقوا فليجتمع الإنس والجنّ للإتيان بمثله، أو ليأتوا بمثل محمّد الأمّي الذي لم يدرس طيلة حياته وليقل لهم مثل ما نطق به محمد، أو انظروا فيّ هل تجدون اختلافاً في أسلوبي أو معارفي أو أحكامي؟

إنّ هذه الأوصاف والمميّزات باقية في القرآن الكريم.

(القرآن في الإسلام، العلّامة الطباطبائي، ص١٣٩)

تعبير فنّي جديد مبتكر

الأمثال القرآنية

الشيخ جعفر السبحاني*

دلّت غير واحدة من الآيات القرآنية على أنّ القرآن مشتمل على الأمثال، وأنّه سبحانه ضرب بها مثلاً للناس للتفكير والعبرة، قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر:٢١. إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على وجود الأمثال في القرآن، وأنّ الروح الأمين نزل بها، وكانت مثلاً حين النزول على قلب سيّد المرسلين صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ومن جانب آخر إنّ المثل عبارة عن كلام ألقي في واقعة لمناسبة اقتضت إلقاء ذلك الكلام، ثمّ تداولت عبر الزمان في الوقائع التي هي على غرارها، كما هو الحال في عامّة الأمثال العالمية. والمثل بهذا المعنى غير موجود في القرآن الكريم، كيف وقد أسماه سبحانه مثلاً عند النزول قبل أن يعيها النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، ويقرأها للناس، ويدور على الألسن، فلا مناص من تفسير المثل في القرآن بمعنى آخر، وهو التمثيل القياسي الذي تعرّض إليه علماء البلاغة في علم البيان، وهو قائم بالتشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز.

قال صاحب (الصورة الفنية في المثل القرآني):«وقد امتازت صيغة المثل القرآني بأنّها لم تُنقل عن حادثة معينة، أو واقعة متخيّلة أعيدت مكرورة تمثيلاً، وضُرب موردها تنظيراً، وإنّما ابتُدع المثل القرآني ابتداعاً دون حذو احتذاه، وبلا مورد سبقه، فهو تعبير فنّي جديد ابتكره القرآن حتى عاد صبغة متفرّدة في الأداء، والتركيب، والإشارة».

أقسام التمثيل

إنّ التمثيل عبارة عن إعطاء منزلة شيء لشيء عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو غير ذلك، فهو على أقسام:

١. التمثيل الرمزي: وهو ما يُنقل عن لسان الطيور والنباتات والأحجار بصورة الرمز والتعمية ويكون كناية عن معاني دقيقة، وهذا النوع من التمثيل يعجّ به كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفّع. وهناك محاولة تروم إلى أنّ القصص القرآنية كلّها من هذا القبيل، أي رمز لحقائق عُلوية دون أن يكون لها واقعية وراء الذهن، وبذلك يفسّرون قصّة آدم مع الشيطان، وغلبة الشيطان عليه، أو قصّة هابيل وقابيل وقتل قابيل أخاه، أو تكلّم النملة مع سليمان عليه السلام، وغيرها من القصص. وهذه المحاولة تُضادّ صريح القرآن الكريم، فإنّه يصرّح بأنها قصص تحكي عن حقائق غيبية لم يكن يعرفها النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا غيره، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف:١١١. إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ القرآن بأجمعه هو الحقّ الذي لا يدانيه الباطل.

٢. التمثيل القصصي: وهو بيان أحوال الأمم الماضية بُغية أخذ العبر للتشابه الموجود. يقول سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ

* مختصر عن كتابه (الأمثال في القرآن الكريم)

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ التحريم:١٠. والقصص الواردة في أحوال الأمم الغابرة التي يعبَّر عنها بـ«قصص القرآن»، هي تشبيه مصرّح وتشبيه كامن، والغاية هي أخذ العبرة.

٣. التمثيل الطبيعي: وهو عبارة عن تشبيه غير الملموس بالملموس، والمتوهّم بالمشاهد، شريطة أن يكون المشبّه به من الأمور التكوينية، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس:٢٤.

والأمثال القرآنية تدور بين كونها تمثيلاً قصصياً، أو تمثيلاً طبيعياً كونياً. وأمّا التمثيل الرمزي فإنّما يقول به أهل التأويل.

تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن

يمكن تفسير المثَل الكامن بالتمثيلات التي وردت في الذكر الحكيم من دون أن يقترن بكلمة «مَثَل» أو «كاف التشبيه»، ولكنّه في الواقع تمثيل رائع لحقيقة عقلية بعيدة عن الحسّ المجسّد بما في التمثيل من الأمر المحسوس، ومن هذا الباب قوله سبحانه:

١. ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التوبة:١٠٩.

إنّه سبحانه شبّه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذه صفته، فكما أنّ من بنى على جانب هذا النهر فإنّه ينهار بناءه في الماء ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنّم، فالآية تدلّ على أنّه لا يستوي عمل المتّقي وعمل المنافق، فإنّ عمل المؤمن المتّقي ثابت مستقيم مبنيّ على أصل صحيح ثابت، وعمل المنافق ليس بثابت وهو واهٍ ساقط.

٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف:٤٠.

كانت العرب تمثّل للشيء البعيد المنال، بقولهم: «لا أفعل كذا حتّى يشيب الغراب»، إلى غير ذلك من الأمثال. ولكنّه سبحانه مثّل لاستحالة دخول الكافر الجنّة بأنّهم يدخلون لو دخل الجمل في ثقب الإبرة، معبّراً عن كونهم لا يدخلون الجنّة أبداً.

ففي الآية تمثيل، وليس لها من لفظ المَثَل وحرف التشبيه أثر.

٣. ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الأعراف:٥٨.

إذا كان الضرب بمعنى قطع الأرض وطيّها فضرْب المثل عبارة عن جعله شيئاً سائراً بين الأقوام والشعوب يمشي ويسير

إنّ هذا مثَل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فأخبر بأنّ الأرض كلّها جنس واحد، إلّا أنّ منها طيّبة تلين بالمطر، ويحسُن نباتها ويكثر ريعها، ومنها سبخة لا تُنبت شيئاً، فإنْ أنبتت فممّا لا منفعة فيه، وكذلك القلوب كلّها لحم ودم، ثمّ منها ليّن يقبل الوعظ، ومنها قاسٍ جافٌ لا يقبل الوعظ، فليشكر الله تعالى مَن لان قلبه بذكره. وفي ذيل الآية ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ إلمامٌ إلى كونه تمثيلاً.

ابتُدع المثل القرآني ابتداعاً دون حذو احتذاه وبلا مورد سبقه

المراد من ضرب المثل

قد استعمل الذكر الحكيم كلّاً من لفظَي «المثْل» و«المَثَل» في غير واحد من سوره وآياته حتى ناهز استعمالهما ثمانين مرّة. و«الأمثال» جمعٌ لكليهما، ويميَّزان بالقرائن، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ..﴾ الأعراف:١٩٤، وهو في المقام جمع المِثْل لشهادة أنّه يحكم على آلهتهم بأنّها مثلُهم في الحاجة والإمكان.

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر:٢١. فاقتران الأمثال بلفظ الضرب، دليل على أنه جمع مَثَل. إلّا أنّ المهمّ هو دراسة معنى «الضرب» في هذا المورد ونظائره، فكثيراً ما يقارِن لفظ المَثَل لفظ الضرب، يقول سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ..﴾ النحل:٧٥.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الزمر:٢٧.

وقد اختلفت كلمتهم في تفسير لفظ «الضرب» في هذا المقام، بعد اتّفاقهم على أنّه في اللغة بمعنى إيقاع شيء على شيء، ويتعدّى باليد أو بالعصي أو بغيرهما من آلات الضرب، قال سبحانه: ﴿..أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ..﴾ الأعراف:١٦٠، وقد ذكروا وجوهاً:

الأوّل: أنّ الضرب في هذه الموارد بمعنى المَثَل، والمراد هو التمثيل، وهو خيرة ابن منظور واستشهد بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يس:١٣، أي مَثِّلْ لهم مثلاً، وهو حال أصحاب القرية، وقال: ﴿..يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ..﴾ الرعد:١٧، أي يُمثّل الله الحقّ والباطل. وهذا خيرة صاحب (القاموس [المحيط]) أيضاً.

التمثيل عبارة عن إعطاء منزلة شيء لشيء عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو المجاز

الثاني: أنّ الضرب بمعنى الوصف والبيان، وقد حُكي عن مقاتل بن سليمان، وفسّر به قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ..﴾ النحل:٧٥.

الثالث: أنّ الضرب بمعنى الاعتماد والتثبيت، وهو خِيرة الشيخ الطوسي، والزمخشري، والآلوسي، فقد فسّروا به قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ..﴾ الحج:٧٣.

الرابع: أنّ الضرب في المقام من باب الضرب في الأرض وقطع المسير، وضرْب المَثَل عبارة عن جعله سائراً في البلاد كقولك: ضرب في الأرض إذا سار فيها، ومنه سمّي الضارب مضارباً. فإذا كان الضرب بمعنى قطع الأرض وطيّها، فضرْب المثل عبارة عن جعله شيئاً سائراً بين الأقوام والشعوب يمشي ويسير حتى يستوعب القلوب.